نظام جديد وحياة جديدة

الأداة الحكومية

تأليف الأستاذين : ابراهيم مذكور ومريت غالي

الطبعة الثانية ١٩٤٥

الكتاب يقع في ثلاث مئة وثماني وثلاثين صفحة ، اخرجته دار الفصول والنشر بالقاهرة . واذا كان الموضوع « الأداة الحكومية » موضوعاً جليلاً ، فان المؤلفين الفاضلين وفقا توفيقاً كبيراً في اختيار الأبحاث وتنسيقها ، وعرضها وتبويبها . فقد وطأا لموضوعهما بمقدمة عرضا فيها ادواء الأمة ومشاكلها . فكان مما قالاه : « ... وكيف نقبل من وزير او مستوزر ان يكون متشائماً ، وشأنه ان يخطو بنا دائماً الى الأمام ! وكيف نقبل الاستسلام الى اليأس ممن بيدهم مقاليد الامة ، اللهم الاّ ان كانوا يحسون انهم لا يقوون على عمل ، وليتهم يصرحون بهذا فينسحوا المجال لمن هم أرغب في العمل منهم ، ولسنا مبالغين ان قلنا : ان روح التشاؤم هذه لم تعظم في اعيننا ولم تتجسم امامنا الاّ على ايدي الرجال ذوي الماضي ، ومن ساهموا في تطور هذا البلد ربع قرن او يزيد ... »

« وقد يكون للشيوخ عذرهم في تشاؤمهم ، ولكن الأمر لم يقف عندهم بل جاوزهم الى الشبان الذين هم معقد الأمل ومحط الرجاء ، فهم بدورهم متشائمون وغالون في تشاؤمهم أحياناً . فيعلنون ان المثل العليا التي ملئت بها رؤوسهم في الدروس والمدرسة لا وجود لها في الخارج ، وان كل من سبقوهم انما سارعوا الى حظهم ونصيبهم ولم يفكروا الاّ في انفسهم ، فجدير بهم ان يضعوا المصلحة العامة جانباً ويتجهوا نحو نفعهم الشخصي .... »

« ... ومن المغالطة ان ننكر اننا تخبطنا كثيراً اثناء العشرين سنة الأخيرة ، فأقدمنا على مشروعات خطيرة قبل درسها . وهدمنا مؤسسات صالحة لأنها تمت الى شخص او حزب معاد ، واتجنا اليوم ما حرمناه بالأمس ، ولم تكن لنا سياسة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

واضحة لا في هدم ولا في بناء ، وفى هذا التخبط ما يضعف ثقة الكثيرين ، ويدفع الى القول بأنا لم نتهيأ بعد للاضطلاع بأعبائنا . ويظهر ان الخصومات السياسية والخلافات الحزبية بالغت في هذا وزادته سوءاً وقبحاً ، اذ ليس منا معصوم ، والقادة والزعماء في البلاد الأخرى يخطئون ويصيبون ، والفارق بيننا وبينهم ان أولئك يخطئون فيتدارك خطأهم ، في حين انا اذا زل أحدنا زلة اتخذها خصومه السياسيون فرصة للتشهير به والتحامل عليه . وربما دفعتنا الخصومة الى ان نرمي الناس بما ليس فيهم ، ونشوه الصالح ونقبح الحسن . »

« ... ومما يؤسف له ان الأمور التي حاولناها لم تنجح النجاح المطلوب ، فلم نقم الدليل على ان التغيير الذي دعونا اليه ، والاستقلال الذي نادينا به ، جاء مصدر خير وبركة شاملة كما كنا نعلن للناس من قبل » .

« ... ولم نستفد من تجربة جربناها ، ولم نتعظ باخفاق وقع فيه غيرنا ، ومضى علينا نحو عشرين سنة وامورنا موكولة الينا دون ان يكون لهذا التمرين أثر عملي يذكر ، اللهم الا انه ابان عن عيوب مستورة وكشف عن نقائص كانت خفية »

وبعد ان يعدد المؤلفان من العيوب ما أشرنا الى بعضه ، يعودان فيقولان :

« كل هذا نسلم به ، ونسلم بأن للمتشائمين عذرهم ، ولكنا نعتقد ان هذا التشاؤم اعدى عدو لأمة ناهضة . واذا قلنا تشاؤم فمعنى هذا انا نقضي على النهوض والاصلاح ، ونسد باب الأمل في الوطن والرجاء في المستقبل ، ونمحو روح التفاني والتضحية التي بدونها لا تقوم الامم ولا تحيى الدول ... »

ويشرح الاستاذان كثيراً من أدواء الأمة ومشاكلها ، من سياسية واقتصادية وصحية . ويتجهان أخيراً الى الاداة الحكومية ، يريانها الوسيلة الأولى لتحقيق الاصلاحات الاقتصادية والاجتماعية . فيذكران من معايبها انها اداة أبلتها الأيام ، وقد تطور الزمن ولم تتطور . ونهض المصريون فلم تجارهم هذه الأداة في نهوضهم . فهي بقية العصور الماضية : تعقد العمل ، وتسيء الى الجماهير . وسيرها بطيء ، لا يتمشى وسرعة السير في القرن العشرين . ونظرتها ضيقة محدودة ، لا تتفق وتشعب الحياة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

التي نعيش فيها ، فحاجتها الى التجديد والاصلاح ، لا تقل عن حاجة اي مظهر من مظاهر حياتنا العامة .

ثم يرفع المؤلفان صوتهما في جرأة وفي حق ، فيقولان قولة خليق بأن يتدبرها كل منا : « ان سير الأعمال الحكومية قد وصل الى حد ان لم نغيره ونبدله بأنفسنا ، فأخشى ما نخشاه ان نسلم بتبديله ولو على ايدي غيرنا » .

« وعبثاً نحاول ان نتحدث عن نهوض اقتصادي ، او تقدم اجتماعي ، ان لم نأخذ أنفسنا بوسائل ناجعة ، ونظم سديدة لتنفيذ ذلك ، وان لم نتخير لمشروعاتنا الصغيرة والكبيرة رجالاً يضطلعون بها على أكمل وجه . وقد جاءت الحياة النيابية على حداثة عهدها ، فزادت الأداة الحكومية تعقيداً ، وملأت جوها بلبلة واضطراباً ، واصبحت الفوضى تتهددنا من كل جانب ان عن طريق السياسة ، او الادارة ، فأبى السياسيون الا ان يتدخلوا في كل شيء ، ويقلبوا كل وضع ، وينقضوا كل مبدأ ؛ وتهاون الاداريون في واجباتهم اعتماداً على حظوة ، وعدوا على حقوق غيرهم باسم المحسوبية » .

هذه مقاطع تخيرناها من هذه المقدمة الممتعة ، للدلالة على قيمة الكتاب وطريقته ، وعلى بيانه وأسلوبه ، ثم لانطباق كثير مما قيل فيها ، بل لانطباقه كله ، علينا أيضاً .

ويخرجان من هذه المقدمة ، الى كلمة موجزة عن « الاداة الحكومية » ، ثم الى الباب الأول في « الرقابة والتوجيه » وفيه بحث عن النظام الملكي النيابي والدستور ، والتربية القومية : وعن البرلمان ، والانتخاب ، والحزبية ، وتكوين البرلمان ، والانتاج البرلماني ، وعن الوزارة ومهمة الوزير ، ورئيس الحكومة ومجلس الوزراء ، وعن مجلس الدولة ، والقضاء الاداري ، واعداد التشريع ، والافتاء .

ثم الباب الثاني في « العمل والتنفيذ » وفيه الخدمات العامة ، وتوزيعها والاشراف عليها ، والانتاج الإداري ، وتفرعاته ، والموظفون ، وأنظمتهم وأحوالهم ، والقضاء وتوحيده ، واستقلاله ، وتنظيمه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ويطول بنا نفس الكلام ، ان نحن رحنا نفصل هذا الذي اجملناه ، وهو تفصيل — اذا كان — فانه لا يغني عن قراءة هذا السفر الجليل ومدارسته . بقي أن نتساءل كيف يحقق هذا الاصلاح ، وكيف تطهر الاداة الحكومية من مفاسدها وأدرانها ؟

هذا ما لم يشر اليه المؤلفان ، الاّ اشارة خاطفة — فيما أذكر — جاءت في الصفحة الأولى من التمهيد وهي : ويعنينا ان نسرد هنا عبارة كثيراً ما سمعناها وهي : « كل هذا كلام جيد ومقترحات يقرها الجميع ، ولكن متى التنفيذ ومن أين يجيء ؟ — »

« وفي رأينا ان وسيلة التنفيذ الأولى تكوين رأي عام قوي يقظ حول مبادئ صريحة ومقترحات واضحة ، وهذا ما رجونا ان يساهم فيه هذا البحث بنصيب . »

اني أسمح لنفسي ان اقول ، بعد ان خبرت الجهاز الحكومي عشرات من السنوات ، في مختلف من الحالات : ان المؤلفين الكريمين ، اذا كانا وفقا في وصف المرض وشرح اعراضه كل التوفيق ؛ فما احسب انهما وفقا في وصف الدواء ، فتكوين « راى عام » عمل شاق وطريق وعر طويل ، ومن يكفل هذا الرأي العام ان لا يفسد عوداً ، كما فسدنا نحن بدءاً ؟

أليس في ما وصفه المؤلفان من تهافت الأمة : شيباً وشباناً على المنافع الخاصة ، ما يقل معه الرجاء في تكوين هذا الرأي العام ، وهل يكوّن هذا « الرأي العام » من لا يؤمن بمصلحة عامة ؟ وقديماً قال الفقهاء « فاقد الشيء لا يعطيه » ان الأمر لا يصلح الا على يد القوي العادل الذي وصفه السيد الأفغاني . نعم ! ان المصلحة العامة لتتطلب رجلاً صلب العود ، صحيح الايمان ، سليم الفهم ، واسع الادراك ، كثير المشاورة ، يتنخل الرأي ثم يستبد في تنفيذه . لا يقول : « عيبتي وكرشي » بهذا تخلص الأمم من مساقط الضعف والتفكك . والاّ كانت آراء عذبة ، يستسيغها الخيال ، ولا تقرها الحقيقة . تنتهي نظريات ، كما بدأت تمنيات .

عارف النكدي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net